

## كلمة « قرآن »

بقلم محمد طه الحاجري

للقراء في أداء كلمة قرآن طريقان : تحقيق الهمزة فيها ، وإهمالها منها ؛ فبعضهم يقرؤها « القرآن » وبعضهم « القرآن » والقراءة غير الهموزة تنسب إلى إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين<sup>(١)</sup> قارى أهل مكة في زمانه ، وآخر أصحاب ابن كثير زمانا ، كما يقول عنه الذهبي في كتابه « طبقات القراء المشهورين » وقد روى عن أبي عبد الله الشافعي قوله في هذا الصدد ، قال : « قرأت على إسماعيل وكان يقول القرآن اسم وليس بهموز ، ولو كان من قرأت كان كل ما قرى قرآنا ، ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل ، تهمز قرأت ولا تهمز القرآن » وكذلك روى صاحب اللسان مثل هذه الرواية ، وزاد عليها تركيبة لها وإعلاء لسندها النسب الذي يصل قراءة إسماعيل بالقراءة الأولى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « قال إسماعيل قرأت على شبل ، وأخبر شبل أنه قرأ على عبد الله بن كثير ، وأخبر عبد الله أنه قرأ على مجاهد ، وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أبي ، وقرأ أبي على النبي صلى الله عليه وسلم » ، وبعد أن أورد ابن منظور هذا القول روى عن أبي بكر بن مجاهد أنه قال : « كان أبو عمرو بن العلاء لا يهمز القرآن ، وكان يقرؤه كما روى عن ابن كثير » فهذه إذن قراءة معتبرة لا شك في صحتها وقوة سندها

ولكن عبارة القسط ينظر إليها من ناحيتين : ناحية الرواية وناحية الدراية أو التليل ، أما الأولى فلا كلام لنا فيها ، وأما الناحية الثانية فقد فازعه فيها كثير من العلماء الذين أورد الفخر الرازي أقوالهم ، فقد قال الزجاج عن قول إسماعيل هذا إنه سهو والصحيح أن ترك الهمزة من باب التخفيف ، ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، فكأنه يرى أنها مشتقة من مادة قرأ ، وأنها

(١) ويقب في كتب طبقات القراء بالقسط ، كأنه تعريب اسمه

تساوى كلمة قرآن الهموزة ، إلا ما كان من هذا التخفيف الذي تجيزه اللفظة وتخضع له ، ولا يغير شيئا من أصول الكلمات فيها على أن هذا التخفيف كثير شائع مطرد في كثير من القراءات التي ترجع إلى أهل الحجاز لما في طبيعة نطقهم وميلهم اللغوي ، وهاك ما يقوله ابن الجزري في كتابه : « النشر في القراءات العشر » : « ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقا وأبعدها مخرجا ، تنوع العرب في تخفيفه بأنواع التخفيف كالنقل والبدل وبين بين والأدغام وغير ذلك ، وكانت قریش وأهل الحجاز أكثرهم له تخفيفا ، ولذلك أكثر ما يرد تخفيفه من طرقهم كان كثير من رواية ابن فليح ، وكناقع من رواية ورش وغيره ، وكأبي جعفر من أكثر رواياته ، وكان عيصن قارى أهل مكة مع ابن كثير وبسده ، وكأبي عمرو فأن مادة قراءته من أهل الحجاز » وهذا صريح جلي في بيان قول الزجاج وصحة مذهبه ، وأن إسماعيل بن قسطنطين قد غاب عنه المنحى العربي اللغوي في مثل هذا ، فذهب بلمس التليل المنطوق ويقول : « لو كان من قرأت كان كل ما قرى قرآنا » كما غاب عنه أيضا أن الاصطلاح من طبيعته أن يحد من مدلول الكلمة المصطلح عليها

وذهب آخرون إلى تلمس اشتقاق لها في مادة « قرن » باعتبار أن الكلمة على أصلها لم تمان شيئا من الإبدال والاعلال : فقال قوم إنها مشتقة من قرنت الشيء بالشيء إذا ضمت أحدها إلى الآخر ، وسمى به لقران السور والآيات والحروف فيه ، ونسب إلى القراء القول بأنها مشتقة من القرائن لأن الآيات يصدق بعضها بمضاهيها ويشابهه

هذا يحمل الآراء في تليل كلمة قرآن بنير همز . أما القراءة الأخرى الهموزة فاختلف كذلك في اشتقاقها على قولين أو ثلاثة فإن جرير الطبري يروي رأيين في هذا ، أحدهما عن ابن عباس ، والآخر عن قتادة ، أما الأول فيذهب إلى أن القرآن مصدر من قول القائل : « قرأت » كقولك الخسران من خسرت والخفران من غفر الله لك ، والكفران من كفرتك ، والغفران من فرق الله بين الحق والباطل — ولم يتعرض الطبري لرواية قراءة ابن عباس لها ، وإن كان مساق القول في الهموزة ، لكن ذلك لا يمتد نصا ؛ وإنما تعرض لاشتقاقها . وقد رأينا من كلام

قرآنه» «وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً»  
 «فاذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون»  
 وقد تقترن بكلمة القرآن كلمة التلاوة في نحو قوله تعالى :  
 «وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن» . «وإذا نتلى  
 عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير  
 هذا أو بدله»

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشير إلى أصل كلمة  
 قرآن إشارةً تحسبها كافية في مثل هذا المجال  
 ثم إن تسمية القرآن بالذكر وبالكتاب تشير إشارة ما إلى  
 هذا الأصل أيضاً ، وحسبنا هذا

فاذا انتقلنا من مادة قرآن إلى صيغتها رأينا التقدمين يختلفون  
 فيها : هل هي مصدر أو وصف على فعلان . وأيا كان الوجه  
 فلا شك أنها قد تركت المصدرية أو الوصفية وتمحضت للاسمية  
 المحدودة ، علما على ذلك الكتاب المقدس

ولكن بعض المستشرقين مثل شفلي Schwallي وفلهوزن  
 Wellhausen يمارض في عربية كلمة «قرآن» ، ويرى فيها كلمة  
 «قرياني» السريانية ، وهي بمعنى القراءة أو المقراء ، ويقوى هذا  
 الفرض لديهم مقارنة الكلمة السريانية للكلمة العربية في  
 الصيغة ولكن هذه المقاربة أو المشابهة لا قيمة لها ، لأن في  
 العربية كثيراً من المصادر على وزن فعلان مثل رجحان ونقصان  
 وغفران وكفران وخسران وغير ذلك مما هو عربي صريح مادة  
 وصيغة ، فأى شيء بلجئنا إلى مثل هذا الفرض ؟ ألأن السريانية  
 لغة الأنجيل ... ؟

قد لا نمنع أن يكون الكتاب الكريم قد استحدثت كلمة  
 «قرآن» استحداثاً ، وليس هذا الاستحداث بالأمر النريب  
 في اللغة . بل ربما لم نجد بدا من فرض ابتداء القرآن الكريم لهذه  
 الكلمة ، ما دامت نصوص اللغة الجاهلية الصريحة النسبة إلى  
 ما قبل الإسلام قليلة نزر لا تمدنا بالدلائل العملية الكافية القاطعة .  
 ولكن إذا كان كتاب الله قد استحدثها فذلك من أصل عربي  
 وعلى نحو عربي . وقد لا يكون ذلك النحو شائماً في اللغة  
 كثير السريان فيها كغيره من الصيغ ، ولكنه في حقيقة  
 الأمر موسيقى صرمان ليس أجبر منه أن يكون اسماً وعنواناً لذلك

اسماعيل بن قسطنطين أن سند قراءاته يتصل بابن عباس ؛ فكان  
 ابن عباس كان يقرؤها مخففة ، ويعلم أنها مخففة عن تحقيق ، كما  
 رأى ذلك الزجاج فيما سبق بيانه<sup>(١)</sup>

أما رأى قتادة فهو أنها مصدر من قول القائل : «قرأت  
 الشيء» إذا جمعه وضممت بعضه إلى بعض ، كقولك ما قرأت  
 هذه الناقة سلى قط ، أى لم تضم رجماً على ولد قط . كقول  
 عمرو بن كلثوم :

ذراعى عيطل أد ماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

أما الرأي الثالث فيرويه السيوطي في كتاب الاتقان عن  
 الزجاج . فهو يرى أنه مشتق من القرء بمعنى الجمع . ثم هو  
 لا يستبره مصدراً - كما يروى عن ابن عباس وقاتدة - وقد  
 سمى به الكتاب المقروء ، وإنما بعده وصفاً على فعلان

وقد وقف الطبري بين رأيي ابن عباس وقاتدة ، ثم أخذ  
 يرجح الأول على الثاني بأنه يتمشى مع تأويل قوله تعالى : «إن  
 علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه» على الأصل الثابت  
 المقرر في الدين ، إذ لو كان القرآن هنا بمعنى الجمع والتأليف لما  
 لزم الرسول صلى الله عليه وسلم فرض «اقرأ باسم ربك»  
 ولا فرض «بأيها الزمل» ولا غيرها من آي القرآن الكريم  
 قبل أن يؤلف إلى ذلك غيره من القرآن

وهذا توجيه وجيه استطاع ابن جرير أن يملك به على خصمه  
 الحجة في أسلوب منطق حاسم

ونحن إذا أجزنا لأنفسنا أن ندخل في هذا النزاع ، ونبدى  
 برأينا فيه ، اتخذنا لأنفسنا مسلكاً غير ذلك المسلك ؛ فقد نستطيع  
 أن ننظر إلى المسألة من ناحية فنية محضة ، نلتبسها في القرآن  
 نفسه ؛ وحينئذ نلاحظ أن كلتي القرآن والقراءة تزودجان في  
 كثير من آي الكتاب الكريم ، فأولى أن تكون كلمة  
 «القرآن» مشتقة من القراءة لا من القرء ، قال تعالى :

«وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون

بالآخرة حجاباً مستورا» . «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من  
 الشيطان الرجيم» . «إن علينا جمعه وقرآنه» «فاذا قرأناه فاتبع

(١) غير أن الزجاج يخالف ابن عباس في المصدر المشتقة منه كلمة قرآن  
 كما ستعرف

آخر ، فهل يدل هذا دلالة قاطعة على عدم وجود الكلمة في اللغة ؟ إنما يكون هذا لو أن الأدلة انحصرت في النص وحده ، وليس النص هو كل شيء ، فالوقوف عنده يؤدي بنا من غير شك إلى الخطأ في الاستنتاج

لم تكن العرب قبل الاسلام أمة كتلك الأمم التي تعيش في حالة أولية ، وإنما كانت أمة تجارة تتعامل بتجارها مع أممي التاريخ الكبيرين : الفرس والروم على معرفة وبصيرة ، وكانت مكة بصفة خاصة مركزاً من المراكز الكبرى لهذه التجارة الواسعة النطاق ، وكانت المظاهر التجارية فيها بارزة في حياتها بروزاً كبيراً بما دعا الأب لامنس Lamens إلى تلقيها في كتابه عنها بالجمهورية التجارية . وهذه الحياة التجارية تنمذ إلى حد كبير على الكتابة - ولن تكون كتابة بغير قراءة - فننرى هذا الحكم بأن لغة العرب لا تحتوي على ما يدل على هذا المعنى . وإن النصوص الجاهلية نفسها تدل على أن العرب قد اتخذوا الكتابة ، لا في الوثائق التجارية فقط ، بل في عقد المحالفات بين القبائل المختلفة ، وحسبنا ما قاله الحارث بن حنظلة في شأن بكر وتغلب :

وأذكروا حلف ذي الجازوما قدم فيه اليهود والكفلاء  
حذر الجور والتصدى وهل ينقض ما في المهارق الأهواء<sup>(١)</sup>  
ونحن نعرف في السيرة مظهراً من مظاهر هذه اليهود في عهد الحديبية « وكان مندوب قريش في كتابته عمرو بن سبيل ، وهو يقدم إلينا سورة من سور الحصافة والدقة في كتابة اليهود والاتفاقات ، فلم تكن قريش حديثة عهد بمثل هذا وانظر هذه الصورة التي يقدها لييد في معلقته :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زُبر تجد متوتها أقلالها  
ومثل هذه الصورة شائع في الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا ، وكما ثبت أن العرب لم يكونوا غريباء عن الكتابة والقراءة وإن فاقترض أن القرآن استمار مادة القراءة من بعض اللغات السامية الأخرى لعدم المشور على هذه المادة في النصوص الجاهلية التي بين أيدينا افتراض فيه شيء كثير من المجازفة

محمد طه الحامري

(١) قال الملاحظ في الحيوان : « ولا يقال للكعب مارق حتى تكون كتب دين أو كتب يهود وميثاق وأمان »

الكتاب الخالد . وقد قصد إلى تقرير ذلك الاسم في الأذهان إذا كان ذلك من الأمور الخطيرة في الدعوة ، ولذلك كرهه أكثر من ستين مرة على أساليب متنوعة ، وفي مواضع مختلفة ، ومناسبات شتى

لقد كان أساس الدعوة إلى الدين الجديد هو القرآن ، ولاسيما في العهد السكي ، فلا جرم كان تقرير اسمه أمراً جديراً بالعناية فكان كثير التكرار كما قلنا ، وهذه الكثرة واضحة وضوحاً تاماً في العهد السكي ، دون المدني الذي لا نكاد نقرأ فيه كلمة (القرآن) في أكثر من خمسة مواضع ، وقد كان القضي لذكرها في بعض هذه المواضع مجرد السياق الذي لا بد منه كما في آية سورة التوبة : « ... وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن » أو سبب النزول كما في آية سورة المائدة : « بأئمتها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » - على حين نرى في إحدى السور السكية المظاهر فيها أسلوب الدعوة الحارة المفتنة ، والمجدل القوي الغلاب ، وهي سورة الاسراء ، أن كلمة القرآن تكررت فيها نحو ثمان مرات . والفرق بين المهديين ظاهر ، ففي العهد المدني كان اسم « القرآن » قد ثبت وتقرر وأخذ ذلك المعنى المحدود فلم تعد الحاجة باسرة إلى تكراره وإشاعته ، كما في العهد السكي إن قول المستشرق في إنكار كلمة « قرآن » يرجع - فيما أحسب - إلى أصلين : أحدهما قولهم في القرآن إنه يصدر عن أصول أجنبية كالتوراة والإنجيل ، فمن هنا لا يرون بأساً أن يكون القرآن قد استمار عنوانه من هذه المصادر أو من اللغة التي كتبت بها ، ولاسيما إذا عجز هذا الأصل الثاني المقرر ليسهم وهو عدم ورود كلمة قرآن في نص جاهلي ، وبعد الذي تقرر من صيغة فعلان صيغة عربية صريحة لا يكون لهم إلا إنكار مادة قرأ بمعنى القراءة في اللغة العربية الخالصة L'arabe pur ، وقد يكون لهم عذرهم في هذا ، فإن من العسير حقاً أن نعتز فيما بين أيدينا من النصوص الجاهلية على مادة القراءة ، وإننا أقطع بأن هذه المادة لم تجيء في اللغات المشرك ، وإنما وردت كلمة « تقرأ » في بيت عمرو بن كلثوم على رواية أبي عبيدة ، ولكن هذا من واد آخر ولكن به صحيحاً أن مادة القراءة لم ترد في نص جاهلي